الأصناف والحرف الاسلامية

للدكتور عبد العزيز الدورى

تقديم

إن الناحية الاقتصادية من تاريخ المسلمين ناحية جديرة بالعناية والبحث لفهم ذلك التاريخ وما خلفه لنا من تراث . وعلى خطورتها لم تلق الاهتمام الذى تستحقه ، نتيجة حداثة هذا الفرع من فروع البحث التاريخى من جهة ، ونتيجة اعتقاد الكثيرين — حتى فى الغرب — بأن ليس لدى المسلمين ما يدرس فى هذه الناحية

ومن طريف نواحى الحياة الاقتصادية تنظيمات العمل وتوجيه العمل فى الحرف والأصناف، فهى دليل حيوية اجتماعية ، وظاهرة للشعور بالكيان مع رغبة فى التعاون وإعلاء مستوى الصناعة وشأن أصحابها

وليس لى إلا أن أقدم الخطوط الأساسية ، عارضاً فيها ما توصلت إليه ببحثى — خاصة فى نشأة الأصناف والنقابات ، ومستفيداً فى نفس الوقت من بحوث من سلف

وخلاصة رأيى الذى أعرضه هو أن تنظيم العمل كان نتيجة لظروف المجتمع الإسلامى، وأن أثر الحضارات القديمة هو فى التراث الاجتماعى العام ، وأن أوليات تنظيم العمل جاءت فى اتجاهين : اتجاه سلمى هادئ يتمثل فى تكتل الحرف فى أسواق منفصلة ونموها تدريجاً ؛ واتجاه عنيف يتمثل فى حركات الميارين والشطار التى وسمت نفسها بالفتوة . وتلى ذلك اتصال الاتجاهين بدعايات الصوفية والقرامطة وبتشكيلات الفتوة وتطور الكل فى اتجاه شامل

هذا ومن أراد التوسع أمكنه الرجوع إلى بعض البحوث خاصة تلك التى أثبتها فى آخر الحديث

إن تنظيم العمل سواء أكان ذاتيا أم صادرا عن جهة خارجية وثيق الصلة بأهميته فى المجتمع وباتساع نطاقه وبالأوضاع العامة المحيطة به . اجتماعية واقتصادية وسياسية

ولقد كان تنظيم العمل لدى المسلمين ذاتيا قام به أصحاب الحرف ووجهوه فى مصلحتهم، فبدأوا بالتكتل ثم كونوا الأصناف والنقابات وساروا بها خطوات بعيدة . ولكن هذه الناحية من تاريخ المسلمين لا تزال فى إطار الفرضيات لنموض أولياتها ، ولورود المعلومات عنها بعد أن قطعت مراحلها الأولى

ويبدأ اختلاف الرأى فى نشأتها؛ فهناك من يرى أن النقابات الإسلامية هى استمرار للنقابات البيزنطية (أو الساسانية) القديمة، فقد كانت فى الهلال الخصيب ومصر نقابات عند الفتح ولا ينتظر أن يقضى العرب عليها إذ أن سياستهم العامة كانت إبقاء التنظيمات القديمة فى البدء على الأقل

وهذا رأى يصعب البت فيه لأننا ليست لدينا إشارات تذكر عن النقابات قبل القرن الرابع الهجرى وهى فى هذه الأخبار تختلف عن النقابات القديمة

ويرى الأستاذ ماسنيون فى بحث له أن الحركة الإسماعيلية هى التى خلقت النقابات الإسلامية وأكسبتها صفاتها المميزة لها . ويعتقد أن النقابات الإسلامية كانت قبل كل شئ سلاحاً شهره الدعاة القرامطة فى كفاحهم لضم الطبقات العاملة فى العالم الإسلامى لتكوين قوة تضرب نظام الخلافة فهم إذن أوجدوا النقابات وسيطروا عليها لاستغلال أصحاب الحرف . (أنظر كتابه عن الحلاج)

ويعطى ماسنيون رأياً أقرب للقبول فى بحثه فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية ، فيبين أن النقابات نشأت فى البلاد الإسلامية فى القرن التاسع الميلادى، وأنها لم تظهر نتيجة لمطالب الشريعة ، بل كانت نموا طبيعيا للتطور الاقتصادى العجيب الذى حصل فى هذه الفترة فى المدن الكبيرة : بغداد أولا ثم البصرة وحلب ودمشق والإسكندرية والقاهرة والرى . ويرى أن التطور الاقتصادى يتمثل فى تمركز رأس المال نتيجة ظهور أصحاب المصارف (الذين كانوا يمدون الدولة بالنقد) وبتمركز العمل نتيجة حملات اصطياد الرقيق الاستعمارية التى كان عملها أصحاب المصارف .

ثم يبين أن الأصناف الإسلامية كانت لها ممتازاتها منذ الهده ومع أنها كانت متأثرة بالنقابات المحلية القديمة بزنطية وساسانية إلا أنها لم تكن مجرد بعث لتلك ؛ بل كانت بالأحرى مظهر رد فعل اجتماعي عنيف لجماعات العمال وأهل الحرف والفلاحين ضد الطبقة الحاكمة التي جمعتهم واستعبدتهم . وينتهي إلى أن تاريخ النقابات وثيق الصلة بالحركة القرمطية التي تمثل ثورة اجتماعية اقتصادية دينية سياسية زلزلت العالم الإسلامي بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر والتي تطورت ووسعت التنظيم النقابي

ويذهب الدكتور لويس إلى أن هيكل النقابات الإسلامية موروث من العالم اليوناني الروماني ، مع أنه يبين أنه لا يستطيع تحديد أصول تشكيلات النقابات وفيما إذا كانت بزنطية أم لا . ثم يرى أن الحركة القرمطية لعبت دوراً كبيراً في تطور النقابات وتركت أثراً عميقاً في تشكيلاتها . ويذهب الدكتور لويس إلى تأييد الملاحظة الأخيرة ببعض الشواهد . فهناك اهتمام الإسماعيلية الخاص بالحرف وتخصيص فصل كامل في رسائل إخوان الصفا التي يتمثل فيها الميل الإسماعيلي لموضوع العمل . فتقول الرسائل إن بعض الناس ، « لا يعمل ولا يتعلم لكسله وثقل طبيعته عن الحركة ويرضى بالذل والهوان في طلب معاشه كالمكدين السؤال . وأما من استولى عليه القمر فإنه لا يعمل من أجل مهانته واسترخاء طبيعته وقلة فهمه مثل النساء وأمثالهن من الرجال » وهذا تمجيد واضح للعمل

ويذكر تأييداً آخر في رأيه وهو أن النقابات كانت مضطهدة ومقيدة بقيود لا تعد في الخلافة العباسية وخاضعة لمراقبة المحتسب الذي كانت مهمته الأساسية (في رأيه) قتل أية محاولة للعمل المستقل فيها في بدئها . بينما كانت النقابات مرفهة وتتمتع برخاء عظيم ولها كيان حسن وامتيازات كبيرة عند الفاطميين

ويعتقد لويس بوجود آثار إسماعيلية في تنظيم الأصناف مثل فكرة المهدي المنتظر وفكرة التنشئة المتدرجة وضم أفراد من طوائف مختلفة في النقابة الواحدة

ولكن التدقيق في بحوث من ذكرنا يشير إلى أن الأوليات لم تبحث كما يجب ولا بد من توضيح الجذور قبل بحث التنظيم

لقد كان في المجتمع الإسلامي صنفان من العمال : الأحرار والرقيق . أما الأحرار فهم أصحاب الصناعات في المدن ويلحق بهم أهل الحرف البسيطة كالزيانين والقصابين وهؤلاء يكونون جمهور الطبقة العاملة

وكان مورد العمال بسيطاً آنئذ ويصف حالهم أبو الفضل الدمشقي « وأما الصنائع العملية وهي المهن فقد قيل قديماً : الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى . وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة ما لا بد له منه ولا يكاد كسبه يتسع لإقامة ضيعة أو عقد نعمة . » ويقول « وأيضاً فإنه مع ذلك إذا ميز الناس دخل في أدون طبقاتهم »

أما طبقة العبيد فهي أوطأ طبقة وهي تشتغل في الحقول أو البيوت وأحياناً في الجيش

وليس قلة مورد العمال بالأمر الجديد ولكن تطورات اقتصادية حصلت ؛ فالمجتمع انتقل من طور زراعي إقطاعي في العصر الأموي إلى طور تجاري زراعي في العصر العباسي . وقد أدى توسع التجارة إلى تضخم رؤوس الأموال وإلى الزراعة الكثيفة وإلى توسع الصناعة وإنشاء المعامل الكبيرة

ولما نشهد ظهور طبقة رأسمالية تضم كبار التجار وأصحاب المعامل وكبار الموظفين . وزاد في قوة هذه الطبقة وتوسيع فعالياتها ظهور طبقة من أصحاب المصارف الذين هم تجار في الأصل أخذوا يتاجرون بالنقود

ثم نلاحظ بسبب توسع المعامل وبسبب الزراعة الكثيفة تجمع العمال وتكتلهم أكثر من قبل حتى صرنا نرى الألوف يشتغلون في محل واحد أو بقمة واحدة . وهذا قوى الشعور بالمصلحة المشتركة وبالأهمية بقمة واحدة . وهذا قوى الشعور بالمصلحة المشتركة والأهمية والقوة . ولا بد أن نشير هنا إلى فكرة ضم الحرف والأصناف في أماكن معينة لكل جماعة سوقها وهذه واضحة في تخطيط بغداد عند بنائها وفي تنظيم القيروان وفي بناء سامراء . وهذه الفكرة الطبقية هي فكرة موروثة وإن كان المجتمع القديم قبل الإسلام من أثر فهو في تخليد هذه الفكرة . وهناك ما يشير إلى حصول ارتفاع في مستوى المعيشة وغلاء في الأسعار في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث

الهجري دون حصول ارتفاع مقابل في الأجور . يضاف إلى ذلك الفوضى العامة التي أحدثتها سيطرة الجند الترك على مرتزقة الأعمال الحرة وأضر بأصحاب الحرف قبل غيرهم . فأثر ذلك في خلق البطالة وروح التمرد والنقمة خاصة على الطبقات الغنية والحاكمة

وبعد ملاحظة هذه الأسس لنستطيع ملاحظة موقف الحرف وأصحاب المهن

وتشير البوادر الأولى إلى اتجاهين في التنظيم الأول : تنظيم داخلي سلمي فيه حاول العمال تنظيم أنفسهم فنرى لكل حرفة سوق ورئيس تختاره الحكومة . ونلاحظ وجود تدرج في الحرفة فنرى طبقتين : الأساتذة والصناع . وهذا واضح منذ النصف الأول القرن الثالث الهجري . ولا يوجد ما يشير إلى اضطهاد الحكومة للعمل في هذه الفترة ؛ بل إن الحكومة كانت تراقب حركات الأعراب الذين يرتادون الأسواق لأسباب سياسية. ويجدر بالذكر أن وظيفة المحتسب لم تظهر إلا بعد انتهاء الفترة الأولى للفوضى التركية . إذ أن أول إشارة لوظيفة المحتسب تعود للخلافة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩) . وإن نظرنا إلى مناشير الحكومة في القرن الرابع الهجري (حتى بعد انتشار الدعاية القرمطية) نراها تجعل عمل المحتسب منع الغش في الصناعة والإنتاج ومنع الحيلة والتدليس في المعاملات والتأكد من صحة الموازين والمكاييل

ولكن يظهر أن الدعاية القرمطية أثرت في قسم من العمال خلال القرن الخامس الهجري وأواخر القرن الرابع الهجري وتوجد بوادر تشير إلى انتهاء بعض فعالياتهم

والاتجاه الثاني كان اتجاها عنيفا يدعو للثورة على أصحاب الأموال والخروج على السلطة وهذا يظهر في تكتلات الصيارين والشطار . وأول إشارة وصلتنا إلى هذا التكتل وردت في لتنوخي وتعود للقرن الثالث وفيها نلاحظ شعائر الجماعة واضحة ؛ لهم ناد خاص سري يجتمعون فيه وشعارهم من الملابس لثر لإزار على الكتف ولف المئزر في الوسط ؛ كما أن الانتماء يتم براسيم أبرزها شد المئزر وشرب كأس من النبيذ . وكان عضاء الجمعية يعملون ويسرقون أحيانا ويقتسمون الأرباح وعلاقتهم عدائية مع الحكومة . وكان هؤلاء يسمون أنفسهم الفتيان . ويجلب الانتباه أن الصيارين والشطار كانوا يدعون أنفسهم بالفتيان

ظهر هذا التنظيم في مجتمع مادي . ومما زاد في قوة التكتل وشدته الدعايات الاجتماعية التي جاءت باسم الدين ولكنها ساعدت على تحسين الحال وتغيير الأوضاع الاجتماعية . وتجلت في حركة الزنج وبصورة أقوى في حركة الإسماعيلية والقرامطة الذين تطرفوا في استغلال التذمر فقالوا بأن الأنبياء والسلاطين أنزلوا العامة إلى مستوى العبودية الاجتماعية والشقاء المادي ، وأعلنوا أنهم يريدون إرجاع العدل الاجتماعي وتحقيق الرفاه المادي . وهناك إخوان الصفا وهم جمعية سرية إسماعيلية الميول اشتغلت ضد الخلافة وصنعت لتهذيب العامة لتجعل ذلك وسيلة لإحداث ثورة سياسية دينية عامة .

ويظهر أن الطبقة العامة في العراق على الأقل لم تبق راكدة بل حاولت تحسين كيانها وتأثرت بالدعايات ، فبعضهم انضم لحركة القرمطية ولحركة الزنج في ثورات عسكرية دامت نصف قرن ، والبعض الآخر سعى بطرق علنية تعاونية لتحسين الوضع وكان لفوضى الجند الترك أثر مباشر في ذلك .

ويظهر أيضاً أن حركة أصحاب الحرف التي ظهرت لدى الصيارين والشطار والفتيان تأثرت بالاتجاهات الصوفية في القرن الخامس الهجري وأواخر القرن الرابع الهجري ، فنجد القشيري يشير إلى خلق سام للفتوة فيه إطاعة للشريعة والرأفة بالناس والعفو عن المسيء والكرم حتى مع المشركين والأمانة والصدق والتواضع ، ويفهم من القشيري أن حركة الفتيان انتشرت في العراق والشام وإيران ، وأن لها أتباع من الطبقة التوسطة إضافة إلى الطبقة الفقيرة

ولا يخفى أن الصلة بالصوفية وصلت في دور لا تزال الدعاية الإسماعيلية فيه قائمة ، وهذا يجعل من الصلابة بمكان قبول رأي لويس من أن الفتيان تخرج وضعها بعد اختفاء الحركة القرمطية وأنها لذلك اتجهت نحو ميول دينية كالتصوف. فنشاط الصوفية كان موازياً للنشاط الإسماعيلي

ويظهر أن الفتوة تأكدت فيها الناحية العسكرية تدريجيا . وقد انتشرت تشكيلات الفتوة في جميع البلاد الاسلامية خلال